# زهرة الرحمة

• بسمة عمر الخطيب*

إلى من يقتلع رصاصة ويزرع مكانها زهرة

«أهذه قصة للنشر؟!. إنّها لا تنفع. أنا آسف...»

أُقفلتِ الستارةُ، وصفّق الجمهورُ، وعادوا من حيث أتوا. ولملمتُ أوراقي كجريح يلملم قطرات دمه ويرحل من أرض المعركة منكسراً. لم أكترث لدموعي؛ تركتُها حيث وقعتْ، ومضيتُ من دون شفقة أو التفاتة وداع.

عبرتُ الشارع غيرَ مبالية بالسيارات أو إشارات المرور التي لم أميّز ألوانَها. لم أَخَفْ أن تصدمني سيارة. لم أفكّر أن أطلب سيارة أجرة كما أفعل دائماً. تابعتُ السير نحو البيت. مشيتُ، وكلماتُه تلاحقني، وقد تحولتْ أياديَ تدفعني إلى السير. مشيتُ أحبس دموعاً تحولتْ عصافيرَ سجينةً راحت تصفّق بأجنحتها بجنون تريد التحرُّر من القفصيْن البلوريّيْن.

وصلتُ إلى العمارة حيث أسكن. لكنّي لم أتوقّف. مشيتُ طويلاً من دون أن أشعر بالتعب. وعندما رأيتُ البحر أفقتُ وسألتُ نفسي: «لماذا أنا هنا؟ وكيف؟» لم أجد إجابة سوى حفنة الأوراق التي كنتُ أحملها، وبدون وعي وجدتُ يديّ تلفظانها كما يَلْفظ الجريحُ أنفاسَه الأخيرة.

◆ ◆

أيقظتني آلامُ جسمي التي لا تُحصى. لشدّة الوجع لم أتبيّن مصدره في البداية. وعندما حاولتُ النزول من السرير عرفتُ أنّ رجليّ متورّمتان وكأنّني قطعتُ مسافات طويلة مشياً. استسلمتُ للسرير ثانيةً. غفوتُ كي لا أتذكّر ما حصل لي البارحة.

**عدتُ حيث كنتُ: البحر، الرصيف، الأوراق المنثورة. يد تنحني برفق تَجْمع الأوراق، وطيفٌ يقترب مني ويدفعها إليّ. أنظر إلى وجهه، فلا أتبيّن إلاّ عينيْه. أحدّق أكثر، ولكنْ من دون جدوى؛ فثمّة ضباب كثيف يلفّ جسدَه ووجهَه، ولا تظهر منه إلاّ عينان. ولكنْ بعد أن ترسو حواسّي في تينك المركَبتَيْن العائمتَيْنِ في الضباب تتكشّف لي أسرارٌ طالما بحثتُ عنها، فإذا هي الآن تتفتّح كزهرة: تُويجيّةً تلو التويْجيّة.. وأعثر داخل الزهرة على ما سعيتُ إليه طوال عمري.**

**غرقتُ في تينك العينَيْن اللتَيْن ابتلعتاني كما تبتلع الرمالُ المتحرّكة جسماً وهناً. غرقتُ من دون أن أحاول الاستغاثة؛ لم أتردّد لحظةً في الاستسلام للغرق. هناك وجدتُ نفسي التي أتوق إليها، واستسلمتُ لذاتي بكل سرور.**

**اقتربتِ اليدُ أكثر. رأيتُها تلوّح لي بالأوراق ملحّةً عليّ في أن آخذها. لمستُ بطرف أصابعي اليدَ الممدودة، وشاء القدرُ أن يتوقف عمري عند تلك اللّحظة.**

**انسحبت اليدُ من اليد، وغابت العينان في الضباب، وطار الطيفُ كعصفور أبيض وحطّ على جبل ثلجٍ فلم أعد أراه. لحقته ولحقتُه. طال المشوار. تهتُ في الطريق. فقدتُه. يئست.**

عدتُ إلى الرصيف حيث كنتُ. نظرتُ حولي، بحثتُ عن الأوراق، ولكنّي لم أجدها.

ألم أرمها؟ ألم يلتقطها ذلك الطيف؟ ألم يعطني إيّاها؟... ويده؟ وعيناه؟ وتلك اللمسة؟ كل هذا ماذا كان؟ كذب؟ حلم؟ وهم!

لماذا يُكتب على أجمل لحظة في حياتنا أن تكون وهماً؟

◆ ◆

طلبتُ سيارةَ أجرة قاصدةً العمل. الساعة تقارب الثامنة، لقد تأخّرتُ، عليّ الوصولُ بأسرع وقت.

خاب أملي حين رأيتُ صفوف السيارات مكدّسةً في الشارع. نصف ساعة وأكثر وأنا في السيارة، احترقتْ أعصابي واحترق المقعدُ تحتي.

---

* ـ كاتبة شابّة من لبنان.

تركتُ السيارة وركضتُ.

ركضتُ بين السيارات، تلاحقني تعليقاتٌ بشعة لم أهتم لها. ركضتُ.. أسرع وأسرع. عشرُ دقائق مَضَتْ.. مشيتُ ومشيتُ؛ لم أعد أقوى على الركض. دخلتُ شارعاً مكتظاً بالمارة. عدتُ إلى الركض. عيون تحدِّق إليَّ، وأجسادٌ هنا وهناك. الشارع يزداد اكتظاظاً، وأنا أزداد غيظاً. ستقارب الساعة التاسعةَ ولم أصل بعدُ إلى عملي.

**أنظُر إلى الساعة، وقبل أن تقع عيناي عليها ألمح طيفاً بين الحشود كالبَرْق بين الغيوم في ليلة عاصفة.. يَلْمع ويختفي. أتجمَّد في مكاني فجأةً. «ما كان هذا؟» التفتُ إلى الوراء، أتعقبُه، لا أجد شيئاً. «هل كان هو؟»... ألحقه. أنسى العملَ والساعةَ والناس. أمشي وأمشي وأتوه مجدَّداً.**

◆ ◆

كالعادة أعود ومعي خيبتي، أخلعها كما أخلع ملابسي، وأرتمي على سريري، وأتذكَّر تلك اللَّحظة الفريدة التي جمعتني بذاك الطيف:

**وأنا أسير في الزحام، والجوُّ خانق، والتعبُ يهدّ جسدي، مرّ بين الوجوه. كان وجهُه مضيئاً كالبدر في ليلة حزينة. كان أوضح من المرّة الأولى. عيناه تبرقان، تقولان كلَّ ما أشتهي أن أسمعه. شفتاه تنفرجان عن ابتسامة. ثم اختفى. تبعته مع يقيني أنِّي لن أجده. كذبتُ على جسدي وقلتُ له: «ستلاقيه، وسيكون لك ما تريد..» وصدّق جسدي المسكين الكذبةَ ولحقها، وصعب عليه أن يواجه الحقيقة، فانهار منهَكاً، وراح يسترجع تلك اللَّحظة التي لا يَضْمن لها أن تتكرَّر.**

منذ ذلك اليوم وأنا أذهب مشياً إلى عملي وأسترجع الذكرى بكل تفاصيلها، وأَعِدُ نفسي بالثأر من القدر.

◆ ◆

اجتاحتني عاصفةُ بكاءٍ هوجاء. وصرختُ: «لا لا...» اجتمع أهلي حولي. قذفتُ المجلةَ بكلّ قوَّتي وارتميتُ على الأريكة. سألوا: «ماذا هناك؟» أخذتْ أختي المجلّة، وبعد أن ألقت نظرةً قالت مستهجنة: «لا غير معقول.. إنَّها قصتها باسم شخص آخر!»

في اليوم التالي كنتُ في مكتب المجلة. طلبتُ مقابلة رئيس التحرير، فلم يُسمح لي. سألتُ عن صاحب الاسم الموقَّع على قصتي، فدلّوني على مكتبه. دخلتُ من دون استئذان، وقلتُ له: «أستاذ ف هل هذه قصتك؟» وأشرتُ إلى القصة التي في يدي. فوجئ ولم يردَّ عليَّ. أضفتُ: «إنَّها قصة سيِّئة، فكيف تنشرها؟ لقد أسأتَ لرصيدك الأدبيّ الثمين!»

- الحق أنَّها من محاولاتي القديمة، وقد أَعْجبتْ كلَّ مَنْ قرأها. لم يجرؤ أحد على القول إنَّها رديئة. مَنْ أنتِ وكيف دخلتِ؟

- أنا بطلة قصتك. كيف عرفتَ كلَّ هذه التفاصيل عنِّي؟

- إنَّها مصادفة..

- (قاطعتُه) لا.. لا ليست مصادفة. إنَّها مهزلة.

وهنا فقد صبره وانتفض سائلاً: «ماذا تريدين؟»

- لقد سرقتَ أحلامي. كيف وصلتْ هذه القصةُ إليك؟»

- أخرجي من هنا وإلاَّ..

صرخ، فتجمّع زملاؤه خارج المكتب وعندها لم أجد بدّاً من الانسحاب، ولكنِّي قلتُ بأعلى صوتي: «هذا الرجل سَرَقَ قصتي. اشهدوا على هذا. إنَّه لص. لص.»

• بسمة عمر الخطيب

كحبّة كرزٍ دهستْها عجلةُ دراجةٍ رعناء: هكذا كان قلبي. تطاير السائلُ الأحمر في كل الاتّجاهات، ولطّخ الأرضَ والعجلةَ ووجوهَ المارة. حبة كرز تسبَّب طوفاناً: هكذا هو قلبي.

سؤال واحد شغل ذهني وأنا أتوجّه إلى حيث تقودني قدماي: «كيف وصلت القصةُ إليه؟» لقد رمَيْتُها على الشاطئ. أكان مارّاً ورأى صفحاتٍ تلمع تحت أشعة الشمس، فالتقطها وقرأها ونسبها إلى نفسه؟ ولكنْ، لماذا لا تكون المصادفة ملاكاً وتأتيني بالعينَيْن اللتَيْن أتسكّع في أرصفة الانتظار من أجلهما؟

ها أنذا مجدّدًا: أمامي البحرُ وخلفي الناسُ، تدفعني خيباتي المتواصلة إلى المكان نفسه. هكذا نحن: نولَدُ ومصائرُنا معلّقةٌ بأماكن محدّدة، هي لنا ونحن لها، منها نخرج وإليها نعود.

ها أنذا مجدداً: البحر أمامي، يرسل أمواجَه لتستدعيني؛ تتلاطم شوقاً إليّ؛ وملايين الملذات المخفيّة في أعماق البحر تُغْريني؛ والعينان الشهيّتان تلوّحان لي في الأفق وتقولان لي: «لن نلتقي في هذه الدُّنيا، ولكنْ في أحشاء البحر قد نلتقي.»

في هذا المكان التقيتُه. ومن هنا سأذهب إليه. سأذهب إلى حيث لا يمكنه أن يهرب مني، إلى حيث يمكنني أن أرتمي كوردة ذابلة على صدره، فأرشف من شفتَيْه رحيقَ الحبّ، وأرى في عَينَيْه حقيقتي ووهمي يتعانقان.

**رفعتُ رِجْلاً خارج الحاجز الحديديّ للرصيف. وقبل أن أرفع الثانية مندفعةً إلى البحر كانت يدٌ دافئة تُمْسك ذراعي وتُرجعني إلى حيث كنتُ.**

**وكان آخر شيء أتوقّعه، وأوّل شيء أشتاق إليه، وكل شيء أحلم به.**

**كان هو. لم أصدّق عينيّ، إلاّ أنّ عينيّ صدقتا ما تريناه: النظرة نفسها واليدُ نفسها والدفء نفسه والعينان ذاتهما... تبينتُ الآن لونهما: إنّهما كل هذه الألوان مجتمعةً؛ إنّهما معزوفةُ ألوان.**

**ابتسم لي ولكنّه لم يختفِ كالسابق. تمنيتُ لو يتكلّم، لو أَسْمع صوتَه، أما أنا فلم أقدر أن أنطق.**

**ترك ذراعي واقترب مني خطوةً وهمس: «لماذا؟»**

**بعد جهدٍ طويل استطعتُ الكلام. قلتُ: «هذه الـ لماذا أنا أبحث عن جواب لها. لماذا كل هذا الانتظار؟ لماذا تأخّرتَ عليّ؟ لماذا هربتَ وتهرب مني؟ لماذا؟»**

**ـ مهلاً، مهلاً، أنا لا أملك أيّ جواب.**

**ـ ماذا تملك إذاً؟**

**مدّ يده إليّ وانفرجتْ كفُّه عن زهرة وقال: «أملك هذه.»**

**تلك الزهرة التي وجدتُها في عَيْنَيْه أولَ مرّة والتي تَحْضن بين تويجيّاتها ذاتي الضالّةَ.**

**أضاف: «اليوم تولدين من جديد. لا تَذْكري آلامَ الماضي وفشلَ المحاولات السابقة. انسِها كلَّها وابدإي من جديد، ولا تفكّري يوماً بالاستسلام للموت. فكّري أنّه الشيء الوحيد الذي لا يستحقُّك ولا تستحقينه. لن تجديني هناك كما تتوقّعين. لستُ في قعر البحر ولا فوق السحاب. أنا هنا بقربك.. معكِ.. لكِ. ابقيْ معي... اكتبي لي قصّة.»**

**قلتُ مستهجنةً: «ماذا؟ قصة؟ لا...»**

قاطعني: «بلى ستكتبين لي قصّة، ولن ترميها على الشاطئ، ولن أعيدَها إليكِ لتعودي وترميَها من جديد ويلتقطها متسوّل ويتصرّفَ بها.»

سألتُه: «أهذا ما حصل حقاً؟ ألم يكن حلماً؟»

ردّ: «لا أعرف إنْ كان حلماً أم لا. المهمّ ألاّ تكرّري ما فعلتِه. اتفقنا؟ اكتبي قصةً وأهديني إيّاها.»

سألتُه متوسّلةً: «وأين، وكيف ألتقيكَ لتقرأها؟»

قال: «لا تقلقي ستصل من تلقاء ذاتها.»

ندت من عيني دمعةٌ خجولة متوسّلة وقلتُ: «كيف لا أقلق وأنا طريدة مجروحة أتلوّى ألماً بانتظار رصاصة الرحمة؟ أطْلِقْها، أرجوك. ارحمْني، أو اتركني أمضِ إلى البحر. لا مكان لي هنا.»

ابتسم ومسح دمعتي برقة وسألني: «رصاصة الرّحمة؟ ما رأيكِ بزهرة الرحمة هذه، ألن تأخذيها؟»

أخذتُ الزهرة من يده. أردتُ أن ألمس يده، إلاّ إنّه سحبها بسرعة. سألتُه بحيرة: «ما اسمك؟»

- ليس لي اسم. أنت التي ستسمينني في قصتك. أنا ظلّ وأنت ستلونينه بريشتك.

- أنت؟! وهذه الألوان التي تضيء كالشموع في عينيك، أظلٌّ أيضاً؟!

- لم أهتمّ يوماً بلون عينيّ. لا أعرف ما هو. لا أشعر بأهميّة هذه الأشياء.

- بماذا تشعر إذاً؟

- أشعر بك.

- حقاً؟!

- طبعاً.. أنت صنعتِني وأنت تملكينني.

- أليس لكَ وجودٌ حقيقيّ إذاً؟

- كيف لا؟ أنا موجود هنا. (وضع أصبعه فوق قلبي، فتسارعتْ دقاتُه، وارتجف كعصفور بردان بلّل ريشَه المطرُ). عودي الى البيت واكتبي لي قصة.

- وأنتَ، إلى أين ستعود؟

- سأعود من حيث أتيت...

- إلى هنا؟ (أشرتُ إلى قلبي)

- (ضحك) أنت ذكيّة... أُنظري إلى تلك الغيمة فوق الشمس الآفلة.. إلى هناك سأعود.

نظرتُ إلى الغيمة التي تتخلّلها أشعةُ الشمس الملوّنة بكل ألوان الطيف وقلتُ: «بيت جميل!» وقبل أن أُكمل كان قد اختفى. نظرتُ إلى الغيمة، فلم أجدها أيضاً. تجمّدتُ مكاني برهة. أغمضتُ عينيّ وأخذت نفساً طويلاً، ثم فتحتهما.

• بسمة عمر الخطيب

**وضعتُ يدي على ذراعي حيث أمسكني: مازالت دافئة. فأخذتني رجفة ونشوة.**

أمسكتُ الورقةَ والقلمَ ولم أتركهما حتى بزوغ الفجر. وبينما الفجر يشقّ قلب اللّيل كان قلمي يشقّ قلبَ السطور.

كتبتُ قصتّنا. زفّتني الكلماتُ إليه، وتوّجتني الحروفُ على عرش قلبه. كنتُ له، وكان لي، وأنجبتُ له أطفالاً بعدد كواكب الفضاء، سبحتْ كلُّها في فلكه وباركتْ زواجنا.

مادمنا لا نلتقي إلاّ في الحلم، ومادام الواقع يَنبذُنا، فلماذا لا نَصنْع واقعنا وإنْ على الورق؟

أمضيتُ النهار سعيدةً. كنتُ أحسّ بجسمي يتحرّك وحده من دون أن تَحْمله رجلاي.

مساءً، وقبل أن تُقْفَلَ الستائرُ على أجمل مشهد في قصة حياتي، بدأ مشهدٌ لا يقلّ عنه جمالاً، إذ تلقيتُ اتصالاً من رئيس تحرير المجلّة الأدبيّة التي زرتُها مؤخّراً. وخلاصةُ الحديث الذي دار بيننا أنّه عرف من رئيس التحرير الذي سَبَقَ أن قدّمتُ له قصتي لنشرها ورفضها أنّني صاحبتها الحقيقيّة، ولذلك طلب مقابلتي وحلّ سوء التفاهم الحاصل.

ذهبتُ إلى المجلة أحمل قصتي الحديثةَ الولادة بحنوّ، كأمٍّ تَحْمل رضيعَها. التقيتُ رئيس التحرير الذي رحّب بي أشدّ ترحيب، وأكّد لي أنّه يشجّع المواهب الشابة. وحينها دفعتُ الأوراق إليه وقلتُ: «هذه قصّة جديدة، أرجو أن تجدها جديرةً بالنشر.»

قرأها وابتسم لي قائلاً: «إنّها رائعة، الفكرة، الصور الجماليّة، الحبكة... إنّها متكاملة! منذ متى تُعدّينها؟ فيها جهد واضح!»

«منذ مساء أمس» أجبتُ. فقال مستغرباً: «هذا أسرع ممّا تصوّرتُ، وأنا سأنشرها بأسرع مما تتوقّعين، والإهداء (إلى مَنْ يَقتلع رصاصةً ويَزْرع مكانَها زهرةً) هذا مثير!»

بدا الشارع مختلفاً والجوّ مختلفاً ووجوه المارّة والسيارات... كلّ شيء حتى البحر والرصيف. تمشّيتُ قليلاً. لم تشردْ بي خطواتي. لم أنتظر أحداً، ولم أبحث عن شيء. وقبل أن أترك المكان متوجّهةً إلى البيت، التفتُّ إلى الأفق حيث كنتُ أُحسّ أنّ أحدهم يرمقني ويطلب أن أنظر إليه. تلك الالتفاتة كانت أجملَ وأروعَ مِنْ كل ما حصل لي. انتفض جسدي فرحاً عندما تبسمتْ لي تلك الغيمةُ الحبيبة.

**... بدا لي طيفُه، وبدتْ لي ابتسامته.**

**عرفتُ أنّ القصة وصلتْ إلى صاحبها.**

**أغلقتُ الباب وعدتُ إلى غرفتي. لم أتبع الطيف. أعرف الآن أين أجده. في عزّ الفرحة يأتي، وفي عزّ الألم يأتي. يربطنا خيطٌ خفيّ لا ينقطع، وتفصلنا مسافاتٌ شاسعة لا تُعدّ، ومع ذلك سيعيش ما بيننا إلى الأبد.**

حضنتُ الزهرة، قبّلتها، نِمْتُ وهي في يدي. لم أحلم. أأحلم بشيء وهو في قلبي وبين يديّ؟

يكفيني أنّي أعيش، وأنّ قلبي ينبض لأطمئنّ على مَنْ يَسْكن فيه. ويكفيني أنّه يسكن فيّ لكيْ أكتب وأتحدّى وأعيش.

**برجا**